رفاعة الطهطاوى

«إن المنبع الأساسى للثروة هو الكد والعمل»
رفاعة الطهطاوى
(مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية)

إذا كان اليسار هو قوة الدفع الديمقراطية التى تسعى إلى تغيير مجمل الأوضاع فى الوطن نحو ما هو أفضل، وما هو أكثر اتساقا مع العلم والعقل والحضارة، وما هو أكثر تحقيقا لمصالح الطبقات الكادحة.. فبهذا المعنى يكون رفاعة هو أبونا جميعا.

فى حارة ضيقة فى مدينة طهطا اسمها "درب الشيخ" كان أطفال المدينة يلهون بلعبة طريفة، يقف أحدهم فى مدخل الدرب المسدود فى نهايته ويصيح "يا سيدنا الشيخ" وتفتح الشبابيك جميعا، وتطل منها عشرات العمائم واللحى، فنحن هنا فى درب تسكنه أسرة "الأنصار" وهى أسرة تنتسب إلى الأشراف تتيه على المدينة وكل من جاورها بنسبها الممتد إلى الرسول الكريم، والأسرة متمسكة بالتباهى بهذا الشرف، ومن ثم تدفع كل أبنائها إلى تلقى العلم الشريف، وإلى لبس العمامة الخضراء.. العلامة المميزة لآل البيت.

والأنصار هم أخوال الفتى رفاعة الذى أتى إلى دربهم مع أمه بعد أن فقد أبوه التاجر كل ثروته، وتنقل مع زوجته وابنه إلى قنا ثم فرشوط، ثم لا مناص من أن يبقى الطفل مع أخواله كى يأكل ويتعلم.

وعندما كبر الفتى باعت أمه كل ما تبقى من مصوغات لتكفل أجر الرحلة فى المركب الصاعد فى النيل نحو المحروسة ليجاور فى الأزهر.. جنيهان كاملان.

والفتى كان حسن الحظ إذ تلقفه أخواله فعلموه ودفعوه إلى مسار العلم، بدلا من فلاحة الأرض. وكان حسن الحظ إذ تتلمذ على يدى أستاذ مستنير زار روسيا وتركيا وفلسطين ودمشق. ويجلس رفاعة طوال النهار أمام حسن العطار فى منزله القريب من الجامع

الأزهر، بينما الشيخ حسن ينتقد انكباب علماء الأزهر على العلوم الفقهية وحدها، داعيا تلاميذه إلى تعلم العلوم الحديثة، والشيخ العطار خالط علماء الحملة الفرنسية، وأعجب بما قدموه من معرفة علمية راقية، وأدرك أن هذا هو سر تقدم دولة الفرنساوية، وظل يردد دوما عبارة حفظها عنه كل تلاميذه: "إن بلادنا لا بد وأن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها".

وبعد عدة سنوات يكون رفاعة قادرا على التعبير عن هذه النزعة بصورة صريحة وواضحة وحاسمة: "إن المعارف الآن سائرة بسيرة مستجدة فى نظريات العلوم والفنون الصناعية التى هى جديرة بأن تسمى بالحكمة العملية، والطرق المعاشية، ومع ذلك فلم يزل التشبث بالعلوم الشرعية والأدبية ومعرفة اللغات والوقوف على معارف كل مملكة ومدينة ضروريا، مما يكسب الديار المصرية المنافع العمومية".

وتأتى الفرصة..

حسن العطار يرشحه للباشا واعظاً للبعثة المسافرة إلى باريس. ويجلس إلى شيخه يتلقى منه آخر وصاياه بأن يتعلم ويتعلم ويتعلم.

وباريس التى شهدها رفاعة الطهطاوى وعاش فى غمارها، هى باريس الحبلى بالثورة، والتى تموج بالحركات الثورية من كل صنف ومن كل بلد أوروبى. وهكذا امتزج التعليم الدينى البحت الذى تلقاه على يد أخواله فى «درب الشيخ»، مع أفكار الشيخ المستنير حسن العطار، ومع إرهاصات الثورة الأوربية المتفجرة التى اتخذت من باريس نقطة ارتكاز لها.

ومن خلال النقاش الهادئ مع مشايخ الأنصار، والجدل العاصف فى أروقة الأزهر، والصراع الطبقى فى شوارع باريس.. ولد رفاعة الطهطاوى.

ولعل أهم ما ميز رفاعة أنه رأى وسمع وقرأ وتعلم بروح انتقادية، فلم يبهر بما قاله الفرنجة لمجرد أنهم أكثر تقدما، بل أعمل العقل وتأمل ما هو مفيد لمصر من أفكاره وتمسك بها متخلصا من كل ما عداها.

فهو يقول فى تأكيد صارم: "لو أننى اتبعت كل ما قاله الإفرنج، ووافقت آراءهم للحياء أو غيره، لكان ذلك محض موالسة".

وهكذا فإن رفاعة عاش فى أروقة الأزهر متطلعا إلى المعارف الحديثة، وعاش فى

باريس متمسكا بالتقاليد المصرية أو ما يراه مناسبا منها، «فالتمدن ليس فى زينة الملابس بعرف مجهول متخيل استحسانه، لا سيما إذا كان لا يمكن لمن تزيا به إحسانه، فحاجة الوطن إلى المتعة الحقيقية أشد من حاجته إلى تقليد العرف الذى هو منفعة ظاهرية".

وباختصار لقد ذهب رفاعة إلى باريس مصريا وعاد أكثر تمسكا بمصريته، "فالبركة فى هذه الدنيا قسمت إلى عشرة أقسام، اختصت مصر بتسعة منها".

بل إن أساتذته فى فرنسا حاولوا إقناعه بأن "منافع مصر تقع موضع التحقيق لو دامت هذه المملكة فى قبضة الفرنساوية" لكن رفاعة يرفض ذلك بحسم، مؤكدا أن هذا القول "مبنى على شبهة واهية. وهى أن مصر يسوغ أن تصلحها فرنسا أو أى مملكة تكون لها مضاهية».

ويعود رفاعة من باريس، كما يقول أحد تلاميذه صالح بك مجدى فى كتابه "حليه الزمن فى مناقب خادم الوطن رفاعة بك رافع، ومصباح الغرب بإحدى يديه، ومفتاح الشرق باليد الأخرى".

التعليم، الترجمة، الاستنارة، الروح الوطنية ومحبة الوطن، تعلم اللغات الأجنبية، نشر الصناعة والفنون، كانت هذه جميعا هى معركة رفاعة الأولى بعد عودته.

وتتحول "مدرسة الألسن" تحت نظارته إلى مصنع لجيل كامل من المثقفين المصريين، الذين ترجموا عشرات من الكتب فى مختلف الفنون والعلوم، وترقوا فى سلك الوظائف فقادوا عملية بناء المجتمع المدنى الحديث فى مصر.

والتعليم عند رفاعة "يجب أن يكون عاما لجميع الناس يتمتع به الأغنياء والفقراء على حد سواء، فهو ضرورى لسائر الناس، يحتاج إليه كل إنسان كاحتياجه إلى الخبز والماء".

وهو ينعى شيوخ الأزهر أنهم لا يسعون "إلى المعرفة فى سائر المعارف البشرية المدنية، التى لها مدخل فى تقدم الوطن".

وهو يعلم المصريين محبة وطنهم مؤكدا أن "حب الوطن من الإيمان"، ويدافع عن تراث مصر وآثارها، ويدعو لتحرير المرأة مؤكدا ضرورة تعليم المرأة، ويصدر كتابا كاملا عنوانه "المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين". وهو يتحدث عن محاولة فرض الحجاب على المرأة قائلا: "إن وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن أو سترهن، بل ينشأ ذلك من التربية الجيدة أو الخسيسة، والتعود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشريك فى المحبة".

ويدافع عن حق المرأة فى العمل، "فكل ما تطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء، إن العمل يصون المرأة ويقربها من الفضيلة".

ويمجد رفاعة الطهطاوى الحرية، "الحرية هى الوسيلة العظمى فى إسعاد أهالى الممالك، فإذا كانت مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى فى راحة الأهالى، وإسعادهم فى بلادهم، وكانت سببا فى حبهم لأوطانهم"، و"الحرية قرينة المساواة فكلتاهما ملازمة للعدل والإحسان"، وأيضا "فالتسوية فى الحقوق ليست إلا عبارة عن تمكن الإنسان شرعا من فعل أو نيل أو منع جميع ما يمكن لسواه من إخوانه أن يفعله أو يناله أو يمنع منه شرعا".

والرأى العام.. إيقاظه، حشده، فعاليته.. هو السبيل لضمان الحرية والمساواة "فإنه مما يحمل الملوك على العدل ويحاسبهم محاسبة معنوية، الرأى العمومى، أى رأى عموم أهل ممالكهم أو ممالك غيرهم ممن جاورهم من الممالك.. فإن الملوك يستحون من اللوم العمومى، فالرأى العمومى سلطان قاهر على قلوب الملوك والأكابر، لا يتساهل فى حكمه، ولا يهزل فى قضائه، فويل لمن نفرت منه القلوب، واشتهر بين العموم بما يفضحه من العيوب".

وهو يترجم الدستور الفرنسى ويلقن مواده لتلاميذه.

مادة ١:"سائر الفرنساوية متساوون قدام الشريعة".

م٣ :"كل واحد منهم متأهل لأخذ أى منصب كان أو أية رتبة كانت".

م٤: "ذات كل واحد منهم مستقل بها ويضمن لها حريتها".

وهو أيضا يدافع عن الجمهورية فيقول: "إن الصراع فى فرنسا يدور بين الملكيين والجمهوريين، والملكية أكثرهم من القسوس وأتباعهم، وأكثر الحريين (أى دعاة الحرية) من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية، والفرقة الأولى تحاول إعانة الملك، والأخرى تحاول إضعافه وإعانة الرعية، ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية ولا حاجة إلى ملك أصلا.. ولكن لما كانت الرعية لا تصلح أن تكون حاكمة ومحكومة وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم، وهذا هو حكم الجمهورية".

هكذا يواصل رفاعة معركة العلم والعقل، الاستنارة والجمهورية.

لكنه لا يكتفى..

لكن الأمر لم يكن بمثل هذه البساطة، فهو ليس مواجها فقط بمحمد على بكل تسلطه وجبروته، لكنه مواجه أيضا بحالة من التخلف توشك أن تطمس أشياء كثيرة، منها الإحساس الوطنى ذاته.

ويصيح رفاعة فى المصريين:

يـــــا صـــــاح حب الـــــوطن
حـــــلـــــيـــــة كل فـــــطن
فـــــمـــــحـــــبـــــة الأوطـــــان
مـن شـــــــــعب الإيمـــــــــان

ويصيح أيضا:

مـــــال المـــــصـــــرى كـــــذا دمه
مـــــبـــــذول فى شـــــرف الـــــوطن
تـــفـــديه الـــعـــين بـــنـــاظـــرهـــا
والـــنـــفس بـــخـــيـــر ذخـــائـــرهـــا

بل هو يترجم نشيد المارسيليز، مضيفا إليه مسحة مصرية تعبر عن الآلام التى تعانى منها مصر والمصريون:

وكـــيف يـــســـوغ أن نـــرضى رعـــاعـــا
من الأغـــراب يـــبـــغـــون ارتـــفـــاعـــا
إلـــهى كـــيف يـــحـــكـــمـــنـــا مـــلـــوك
بـــســـبل الـــعـــدل لـــيس لـــهم ســـلـــوك

ولكن أى مستقبل يريد رفاعة لهذا الوطن؟

"فما يسمونه الحرية ويرغبون فيه هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والإنصاف، ذلك أن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوى فى الأحكام والقوانين بحيث لا يجور الحاكم على إنسان".

والفضائل لها أساس واحد "هو العدل العمومى والإنصاف المشترك بين أعضاء الجمعية (المجتمع)"، وإذا كان هناك تقدم ما فى عملية الإنتاج، وخاصة فى الزراعة، فإن رفاعة يؤكد:"أن المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية، المجتنى لفوائد هذه الإصلاحات

الفلاحية الناتجة فى الغالب عن العمل واستعمال القوى الآلية، والمحتكر لمحصولاتها الإيرادية إنما هو طائفة الملاك.. فهم من دون أهل الحرف الزراعية يتمتعون بأعظم مزية، فأرباب الأراضى والمزارع هم المغتنمون لنتائجها العمومية والمتحصلون على فوائدها، حتى لا يكاد يكون لغيرهم شىء من محصولاتها له وقع".

بل هو يقتحم موضوعاً حساساً هو كيفية تولد القيمة ويقول: «لقد اختلف هل منبع الغنى والثروة، وأساس الخير والرزق هو الأرض، وإنما الشغل مجرد آلة وواسطة لا قيمة له إلا بتطبيقه على الفلاحة، أو أن الشغل هو أساس الغنى والسعادة ومنبع الأموال المستفادة، وأنه هو الأصل الأولى للملة والأمة.. فالفضل للعمل أما فضل الأرض فثانوى تبعى، وهذا هو ما يعتمده أهل الفلاحة ويستدلون على ذلك بأنه لا يمكن إيجاد الخصب فى الأرض إلا بدوام الشغل واستمرار العمل، وإلا لبقيت مجدبة.. فإن الشغل يعطى قيمة لجميع الأشياء التى ليست متقومة بدونه». ويقول: "لو زرعنا أرضا خصبة وميزنا ما يمكن أن ينسب من إيرادها للعمل، وما ينسب للخصوبة منه، وفرزنا كلاً على حدة وجدنا محصول العمل أقوى من محصول الخصوبة".

ثم هو يلخص فكرته فى مقولتين أكاد أجد نفسى مضطرا إلى مقارنتهما بعبارات مماثلة لكارل ماركس، تقول المقولتان:

«إن المنبع الأولى للسعادة (الثروة) هو العمل والكد».

«إن قيمة العمل مجسمة للمصنوعات والمشغولات».

ويواصل رفاعة دفاعه عن العمال وانتقاده لمسلك الأغنياء قائلا: "إن الملاك فى العادة تتمتع بالمتحصل من العمل ولا تدفع نظير العمل الجسيم إلا المقدار اليسير الذى لا يكافئ العمل، فما يصل إلى العمال فى نظير عملهم فى المزارع، وإلى صناع الآلات فى اصطناعهم لها هو شىء قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد إلى الملاك، فإن المالك يستوفى لنفسه أكثر محصول الأرض ولا يعطى لأرباب الأعمال والأشغال منها إلا قدراً يسيراً، ولا ينظر إلى كون بعض العمال هو الذى حسن الزراعة بشغله، واختراع طرائق منتجة، والذى مكن الملاك من ذلك هو حق التملك ووضع اليد على المزارع بما يسوغ للملاك أن يتصرفوا فى عمليات أملاكهم التصرف التام، وان يعطوا للعمال بقدر ما يظنون أنه من لياقتهم، ويعتقد المالكون أنهم أرباب استحقاق عظيم بسبب التملك، وأنهم الأولى بالسعادة

والغنى، وأن من عداهم من أهل المملكة لا يستحق من محصول الأرض شيئا إلا فى مقابل خدمته المأمور بإجرائها، فيترتب على هذا أن كل من يريد العيش من الأهالى يصير مضطرا، لأن يخدم مقابل القدر الذى يتيسر له أخذه من الملاك بحسب رضائهم، ولو كان هذا القدر يسيرا جدا ولا يساوى العمل"، ولعل هذا يكفى لإيضاح الموقف الطبقى عند رفاعة (فقط لنتذكر عبارات مماثلة لكارل ماركس). بل هو يواصل وكأنه ينقل عنه نصا "فإذا وجد بالجهة الكثير من الشغالين فإنهم يتناقصون فى الأجرة، ويتنافسون فى ذلك لمصلحة صاحب الأرض، فلا يمكن أن يكون ذلك التحسن والزيادة والخصب إلا بالعمليات الفلاحية الصادرة من هؤلاء الأجرية الذين تناقصت أجرتهم".

ثم هو يبسط هذه الأفكار ويصوغها شعرا يحفظه تلاميذ المدراس، فى كتاب ألفه وقرره عليهم أسماه "تعريب الأمثال فى تأديب الأطفال" ويقول:

من رام نظمه بسلك السعدا
فليسعد الناس ليبقى مسعدا
يحب مثل ما له لغيره
يعطى أخاه جانبا من خيره

ولم يمهل الوشاة رفاعة طويلا فكتبوا للخديوى أن رفاعة "يردد أفكاراً تهيج الرعية وتحضها على التمرد وعدم إطاعة الحاكم طاعة مطلقة".

وينفى رفاعة إلى السودان بصفة «خوجة» أى مدرس.

وتسجن كتبه فى مخازن الحكومة، ويمنع تداولها.

لكن عبق الاستنارة يبقى.

ويبقى مع تلاميذ رفاعة الذين أجهد نفسه فى تعليمهم، تاركا لمصر جيلا كاملا من المثقفين العصريين الذين واصلوا معركة بناء مصر الحديثة ومجتمعها المدنى.